الفصل الحادى عشر

الإسلام والصين

قلة فى الغرب هى التى تدرك الروابط الوثيقة ما بين الإسلام والصين. إن الصين تأتى فى صدارة الدول التى تضم أعدادا كبيرة من المسلمين : فعلى امتداد أرجاء البلاد يتوزع نحو عشرين مليون مسلم – وهو عدد يفوق نظيره فى العديد من الدول العربية. على أنه توجد اختلافات واضحة فيما بين هؤلاء المسلمين. فنصف عدد المسلمين الصينيين، على وجه التقريب، ينتمون إثنيا إلى "الهان"، تتخللها بعض الدماء العربية والفارسية تجد جذورها فى هجرات المسلمين الأوائل إلى الصين. ويشار إليهم بأنهم "هوى" أو "هوى–هوى".

ويتحدث هؤلاء اللغة الصينية فحسب، ويتطابق نمط حياتهم اليومى مع الصينيين من "الهان"، عدا القليل من التمايزات الثقافية التى تنشأ من كونهم مسلمين. وبمرور الزمن، تمازجت عناصر "الهان" مع العناصر الإسلامية وفق طرائق مذهلة ونشأ بينهما نوع من التعايش السلمى فى إطار الثقافة الصينية الأرحب. أما النصف الآخر من مسلمى الصين فينتمون إثنيا ولغويا إلى عنصر مغاير – فمعظم هؤلاء من أصول تركية. ويعيش "الأوغور"، كما يطلق عليهم، فى أقصى غربى البلاد ويمثلون الجماعة "التركية" الأكبر على الإطلاق. وبينما نجد "الهان" المسلمين تتقاطع حياتهم، فى مجملها، مع نمط الحياة السائد فى الصين، فإن "الأوغور" بخلاف ذلك. وتنظر السلطات الصينية بارتياب إلى أولئك "الأوغور" وتعاملهم بقسوة، مشددة على الطابع الإثنى الذى يسم المشكلة بالأساس، والتى يتم تضخيمها بفعل اعتناقهم للإسلام وتمسكهم به كعقيدة لهم.

وفى الحالة الصينية، فإن الصورة الشائعة عن انتشار الإسلام بالسيف لا تجد أساسا لها. فوفقا للوثائق الصينية، بلغ الإسلام مشارف الصين فى وقت مبكر للغاية، عام ٦٥١، بعد ثمانية عشر عاما فقط من وفاة النبى محمد، وذلك عن طريق البحر إلى "كانتون" بواسطة مبعوث من قبل الخليفة "عمر بن الخطاب". وهناك حديث يعزى إلى النبى محمد يقول : "اطلبوا العلم ولو فى الصين". ووفقا للتقاليد الإسلامية، أمر الإمبراطور الصينى إبان حكم سلالة "تانغ" بإنشاء مسجد فى "كانتون" هو الأول فى الصين ... ذلك المسجد الذى ما يزال قائما إلى اليوم. وقد آمن الإمبراطور بأن الإسلام يتوافق كثيرا مع التعاليم الكونفوشيوسية، كما عمل على منح التجار العرب والفرس حقوقا لإرساء قواعد الاستقرار الأولى داخل المجتمع الصينى. لذا، فقد كانت أولى اللقاءات الصينية بالإسلام فى "كانتون" سلمية ومثمرة. ولقد تم منح المسلمين موضعا فى المجتمع الصينى، حيث عرفت

مهاراتهم وعلاقاتهم التجارية منذ تجار مرحلة ما قبل ظهور الإسلام. وسرعان ما أدركت الصين المهارات البحرية الفائقة التى كان المسلمون يتمتعون بها، والمكاسب المحتمل أن تتحصل عليها الصين ببسط نفوذها وفرض سيطرتها. ونتيجة لذلك، سرعان ما أصبح المسلمون مسيطرين على عمليات الصادرات والواردات الخاصة بالصين خلال فترة حكم سلالة "سونغ" (٩٦٠-١٢٧٩)، ولقد كان منصب المدير والقائد المسئول عن الملاحة يتم شغله، على الدوام، بواسطة أحد المسلمين.

إلا أنه بعيدا، وعلى الحدود الشمالية الغربية للصين، كانت هناك مواجهة مختلفة تماما بين الصين والإسلام كانت لها عواقب جيوبوليتيكية عميقة الغور وبعيدة المدى. ذلك أنه فى أثناء حكم سلالة "تانغ"، انحدرت القوات الصينية غربا صوب آسيا الوسطى، حيث واجهت الجيوش العربية للخلافة العباسية فى عام ٧٥١ عند نهر طلاس (ويقع الآن ضمن حدود دولة قيرغزستان". ولقد أسفرت المواجهة عن هزيمة القوات الصينية على أيدى العرب، وهو الحدث الذى وضع حدا للتوسع الصينى باتجاه آسيا الوسطى. ويرى الكثيرون أن معركة نهر طلاس تعد نقطة تحول حاسمة على الصعيدين الاستراتيجى والحضارى : إذ حالت دون سقوط آسيا الوسطى فى قبضة الحكم الصينى، والأمر الأهم هو أن أعدادا متزايدة من القبائل التركية أخذت فى اعتناق الإسلام، وهو حدث كان له تأثير لا يمكن محوه فى هجراتهم عبر قرون طوال حاملين معهم دينهم الجديد إلى كل من حوض البحر المتوسط والأناضول من أعمال الإمبراطورية البيزنطية.

وبمرور الوقت، أضحى المسلمون أكثر اندماجا فى إدارة شئون الإمبراطورية الصينية : فخلال حكم سلالة (يوان) المغولية (١٢٧١-١٣٦٨)، استعان المغول بالمسلمين لتوطيد أركان العلاقات التجارية مع الغرب. أما القوات المغولية، والتى توغلت عميقا نحو الغرب حتى حدود دمشق، فقد قامت بجمع الآلاف من العرب والفرس وأتراك آسيا الوسطى، وإرسالهم إلى الصين للمساعدة فى إدارة شئون الإمبراطورية - فيما يتعلق بالأمور المالية والضريبية، والأعمال الفلكية ووضع

التقاويم، وفى بناء عاصمة جديدة فى بكين. وقد كان ذلك بداية لأول تدفق جدى من دماء أتراك آسيا الوسطى نحو الصين لإحداث التوازن مع الإثنيات العربية والفارسية للمسلمين الأوائل. وقد عهد إلى المسلمين بالأعمال المرتبطة بالإدارة والحكم، وأضحى الكثير منهم مندمجا تماما فى الثقافة الصينية، الأمر الذى أسهم فى تكوين الأعراق المختلفة "للهوى".

أما فترة حكم سلالة "مينغ" بالصين (١٣٦٨-١٦٤٤)، فقد كانت فترة مثمرة وخصبة للمسلمين. إذ بعد أن كان ينظر إليهم باعتبارهم تجاراً من العرب والفرس الدخلاء، شهدت تلك الفترة اندماج المسلمين "الهوى"، بحق، فى الثقافة الصينية، وحملهم أسماء صينية. وقد أقام "الهوى" مراكز كبرى لتعليم المسلمين فى "نانجينغ"، وكانت اللغتان العربية والفارسية هما اللغتين الثقافيتين لتعلم الإسلام. كذلك، فقد زادت معدلات زواج المسلمين بالصين من أتباع المعتقدات الأخرى، وبذا، فقد ذاب طابعهم "الدخيل"، وأصبح مظهرهم الخارجى مشابها لسواهم. وليس لدى "الهوى" "ما يجمعهم من لغة مستقلة أو أراض إقليمية بعينها، أو نمط معين للحياة الاقتصادية، بالرغم من اشتهارهم بميلهم الفطرى نحو التعامل التجارى فى الأسواق بمهارة واقتدار". فالشىء الوحيد المشترك بين أبناء "الهوى" هو الإسلام وممارساته. وبسبب وجود الإسلام المبكر فى الأراضى الصينية، فقد تم اعتباره أحد الأديان الرسمية للإمبراطورية إلى اليوم. وبمرور الزمن، أصبح "الهوى" أكثر تآلفا، كما أصبحوا موضع ثقة السلالات المتعاقبة للحكام الصينيين نظرا لانتمائهم، بالأساس، إلى ثقافة "الهان"، واندماجهم المتزايد فى المجتمع الصينى، وذلك على خلاف الأقليات المسلمة الأخرى ذات الإثنيات المغايرة بما تتسم به من نزعة مقاومة ضد الذوبان فى ثقافة "الهان" ... تلك النزعة التى ما زالت مستمرة إلى اليوم.

وخلال أوائل القرن الخامس عشر الميلادى، تمت أبرز المغامرات البحرية فى تاريخ الصين على يد الأدميرال "زينغ هى"، وهو صينى مسلم تم إرساله من قبل الإمبراطور عبر سلسلة اشتملت على سبع رحلات بطول المحيط الهندى، حيث عاد

إلى الصين بوعى وإدراك بالممالك الإسلامية وحضاراتها ... تلك القابعة إلى الغرب من الإمبراطورية الصينية.

التأثيرات الثقافية المتبادلة

كما فى روسيا والهند، فقد أحرز الإسلام درجة عالية من التواؤم مع الحضارة والثقافة بالصين. وفى الصين، كما فى غيرها من بلدان العالم، انبثقت بعض حركات التجديد الإسلامى المؤقتة، والتى هدفت إلى العودة بالإيمان إلى منابعه الأصيلة، وإزالة أية أفكار غير إسلامية دخيلة وفدت على صعيد الفكر والممارسة، فضلا عن إيلاء الاهتمام بمبادئ وأساسيات الدين الإسلامى. وقد أثر هذان الاتجاهان المتضادان – استيعاب الجديد من الأفكار، ورفض أى إبداع أو تطوير – على الإسلام فى الصين.

إن المفكرين الإسلاميين فى الصين قد راعهم، فى وقت مبكر، ذلك الكم الضخم من الأفكار الفلسفية الصينية، والتى كانت قائمة بالفعل لدى دخول الإسلام للصين. وكما أوضح المؤرخ "جوناثان ليمان" :

"يبدو أن تأثير الأفكار الكونفوشيوسية ونفاذها إلى الإسلام فى الصين قد أمد الإسلام فى أخريات حكم سلالة "مينغ"، وبدايات حكم سلالة "كينغ" – والذى كان مهددا بالأفول – بدفقة من دماء جديدة وقدر من الحيوية ... وقد انبثقت جماعة من الإسلاميين الصينيين، عمدت إلى استخدام اللغة والأفكار الكونفوشيوسية بمنهاجية لدراسة، وترتيب، وإيجاز ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية. وقد قام أفراد تلك الجماعة بتأسيس نسق ثقافى إسلامى صينى متكامل، وكتابة مجموعة من الأعمال الإسلامية باللغة الصينية، ووفقا للأسلوب الصينى الفريد. وقد أطلق المسلمون بالصين على تلك الأعمال لفظة "هان كتاب" أو "ديوان الهان". وكان لتلك الأعمال تأثير جلى على المجتمع الصينى المسلم".

وفى الصين، تم بناء المساجد، جميعها، وفقا للطراز الصينى التقليدى الذى

بنيت المعابد والهياكل وفقا له. كذلك، فقد أبدع "الهوى" حروفا عربية/صينية فريدة للتمكن من قراءة اللغة الصينية وكتابتها بأحرف عربية. أما الباحثون المسلمون الراغبون فى بعض التواؤم فيما بين الثقافتين الإسلامية والصينية، فقد وجدوا، بالفعل، تلك المواءمة الفلسفية فى الكونفوشيوسية. وقد عمد "يوسف ما دكسن"، أحد أهم الباحثين المسلمين بالصين، إلى إيجاد تآلف وتناغم فيما بين الإسلام والكونفوشيوسية. وقد ولد "دكسن" فى مقاطعة يون نان" فى الجنوب الغربى من الصين، وقام برحلة الحج فى عام ١٨٤١، حيث مكث لمدة ثمانية أعوام فى إقليم الشرق الأوسط، ودرس بالأزهر فى مصر، وقام برحلات واسعة فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية، بما فى ذلك أورشليم. كذلك، كان "دكسن" على دراية واسعة ومعرفة عميقة بكل من اللغتين العربية والفارسية، وكان أول من ترجم معانى "القرآن" إلى اللغة الصينية. كما حمل "دكسن" أيضا إلى الصين أحدث تيارات الفكر الإسلامى والسياسى السائدة، آنذاك، فى الشرق الأوسط.

إن تحلق المسلمين حول الكونفوشيوسية قد يبدو، للوهلة الأولى، غريبا لما لها من طابع علمانى صريح، وتشديدها على العنصر الفلسفى لا على الآفاق الدينية السامية. بيد أنه، ولما كانت الكونفوشيوسية تطرح إطارا من الأخلاق والقيم، فقد بدت أقل تحديا للإسلام على الصعيد الثيولوجى. كذلك، فالكونفوشيوسية هى أكثر العقائد والديانات ذات النزعة "الصينية"، وهو الأمر الذى يصب فى صالح المسلمين لإقناع القائمين على تسيير أمور الإمبراطورية إبان حكم سلالة "كينغ"، والتى اشتهرت بالتشكك فى المسلمين وقمعهم ومراقبتهم - بالعناصر التوافقية المشتركة بين الإسلام والكونفوشيوسية... بإظهار حرصها على استتباب النظام، وتحقيق العدالة، ومتطلبات الحكم الجيد، وتأييد الإمبراطور ومؤازرته.

وقد آمن بعض المسلمين بأنه من الممكن اعتبار الكونفوشيوسية مدخلا لنشر الدين الإسلامى بين صفوف الصينيين. إلا أن التواؤم التام فيما بين العقيدتين كان على الدوام تحديا كبيرا، خاصة وأن العقيدة الإسلامية، فى مجملها، تتجاوز

المنظور الدنيوى غير التوحيدى الذى ينطوى عليه الفكر الكونفوشيوسى. كذلك، فإن الثقافة الصينية بنزعتها الإثنية المركزية الغالبة تجعل من الصعوبة بمكان تقبل أن تكون "مكة"، تلك النائية ذات البعد الغرائبى، قبلة ومركزا للإيمان لدى المسلمين، فى حين ترفض الملل الإبراهيمية الثلاث برسالاتها، وما تنطوى عليه من عناصر إيمانية قبول ذلك المعتقد الصينى شديد التبسيط. لذا، فلم ينجح المسلمون فى اجتذاب معتنقين جدد للإسلام من بين صفوف "الهان" الصينيين. أما البوذية، فكانت تحديا أكبر واجهه المسلمون حين سعوا إلى التعرف إليها ومحاولة تفهم أهدافها، ذلك لأصولها الهندية، وعدم انبثاقها من التربة الصينية، واتسامها بالتجريد الشديد والغيبيات المفرطة، وطابعها غير التوحيدى الذى اصطدم بمشاعر المسلمين.

حكم سلالة «كينغ» (١٦٤٤-١٩١١)

إن حكم سلالة "كينغ" للصين قد جاء ليكون نقطة تحول فارقة بالنسبة للمسلمين هناك، لعلها أسوأ فترات التاريخ الصينى على الإطلاق من وجهة نظر المسلمين حتى بدايات ثورة "ماو تسى دونج". فقد عمدت تلك السلالة المنتمية إثنيا "للمانشو" (الألطائية) لا "للهان" - أن تكون عدائية النزعة تكيل بمكيالين وتنحاز ضد مصلحة المسلمين، كذلك لم تكن تلك السلالة تركن إلى الأجانب لتشككها فيهم، مع عدم إيلاء "الهوى" أية مصداقية أو ثقة. وقد قامت سلالة "كينغ" بحظر بناء أى مسجد جديد فى الصين، كما منعت أية رحلة للحج "لمكة"، مما أدى، على الفور، إلى شعور المسلمين بالغربة جراء تلك الإجراءات. وقد أدت النزعة التمييزية ضد المسلمين، والتى اتسمت بها تلك السلالة -إلى جانب أفول نجمها تدريجيا- إلى انتفاضتين كبيرتين من قبل مسلمى الصين : الأولى هى ثورة "بانثاى" (١٨٥٥-١٨٧٣) فى مقاطعة "يون نان" فى الجنوب الغربى من البلاد، والثانية هى ثورة "دنغان" (الهوى) (١٨٦٢-١٨٧٧) فى الشمال الغربى منها. وفى أثناء هاتين الثورتين، لقى عدة ملايين حتفهم نتيجة لجوء السياسات الحكومية إلى القيام بمذابح وإبادات جماعية. وفى أثناء تلك الفترات التى اتسمت بالدموية، نزح الكثير

من "الهوى" إلى آسيا الوسطى، وتحديدا إلى الجزء الروسى بها، وكان يطلق على هؤلاء "الدنغان" ... وما زالوا يمثلون أقلية بارزة تحتفظ بعلاقات مع الصين. ولم تكن الثورات ضد حكم سلالة "كينغ" حكرا على المسلمين، بل كان هناك فوضى وثورات وقلاقل على امتداد كامل الأراضى الصينية حين أخذت شمس تلك "السلالة" تأذن بالمغيب. وهنا تبقى خلاصة مهمة مفادها أن المسلمين فى الصين، كما فى روسيا، لم يقوموا بالثورة إلا حين ووجهوا بأمور وأحوال مهولة كتلك التى مثلها القمع الصينى إبان حكم سلالة "كينغ"، وكذلك ما جاءت لتمثله الأحزاب الشيوعية فى كل من روسيا والصين لاحقا.

إن الصوفية – تلك القوة الإسلامية الفائقة التى تعمل على مد جسور التواصل والحوار فيما بين الأديان بتشديدها على الجوانب الروحانية السامية – قد دخلت الصين عن طريق آسيا الوسطى، والتى نشأت بدورها فى التخوم الغربية (العالم الإسلامى الواقع فى إقليم الشرق الأوسط). وقد استطاعت أعداد قليلة، وإن كانت هامة، من المسلمين الصينيين الارتحال إلى مصر، وشبه الجزيرة العربية، والإمبراطورية العثمانية، ونواح أخرى لدراسة الإسلام فى وقت كان إقليم الشرق الأوسط ذاته يشهد ميلاد عدد من الحركات التجديدية. ولقد نقلت تلك الأفكار الجديدة، والمعروفة "بالتعاليم الجديدة" – إلى الصين لمواجهة الأنماط الإسلامية التقليدية شبه المتحجرة هناك. ولقد مثل الضغط الذى أحدثته "التعاليم الجديدة" تجديدا ثقافيا عمل على إحداث التواصل بين العناصر المتنائية فى العالم الإسلامى، إذ سعى باحثون جدد إلى تقريب الممارسات الإسلامية فى الصين لتتطابق قدر الإمكان مع الفكر السائد فى قلب العالم الإسلامى.

وفيما كانت الصين تدلف إلى ثلاثينيات القرن العشرين، كان الباحثون المسلمون البارزون هناك ما زالوا عاكفين على السعى لإحداث التوافق الفكرى المنشود مع ثقافة "الهان" الصينية، والتشديد على أهمية التعليم والعلوم الحديثة لتعضيد المجتمع الإسلامى بالصين. وقد آمن الكثيرون بأن ما يبتغيه المسلمون فى

الصين من "أمن ثقافى" لن يتأتى إلا فى ظل "صين" قوية تلتزم بالإدارة الجيدة، والمنهاجية القويمة. وتسعى تلك الجهود "إلى جعل الإسلام يفهم جيدا كدين أخلاقى يعنى بالمبادئ السامية، ويكون ذا فاعلية مؤثرة فى المناخ السياسى والثقافى الصينى من دون المساس بقواعده الرئيسية".

بيد أن الحكم الشيوعى للصين قد جاء ليضع نهاية لذلك كله، فقد قام بتوجيه ضربة شديدة لجميع الأديان، والتقاليد، والقيم -وليس للإسلام فحسب- وخاصة خلال "الثورة الثقافية". فالمساجد على امتداد كامل الأراضى الصينية قد جرى تشويهها، أو تدميرها، أو غلقها، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع المؤسسات الدينية للعقائد الأخرى. بيد أن "الهوى" قد عادوا ليصبحوا فاعلين فى الصين ما بعد الحقبة الشيوعية، بانتشارهم فى الأرجاء كافة. لقد أصبحت ثقافة "الهوى"، ومسلمو آسيا الوسطى مصدراً للرومانتيكية الشعبية فى الملاحم الصينية، وكذلك تأثيرها فى الأزياء، والموسيقى الصينية. وقد انتشرت المطاعم الإسلامية، كذلك، فى المدن الصينية. وتقدم تلك المطاعم المأكولات وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية (بتحرى الحلال عند الذبح)، فضلا عن تقديمها لأطباق من لحوم الضأن الشهية، والتى ليست من أطباق المطبخ الصينى التقليدى - بما يفسر ارتيادها من قبل الصينيين غير المسلمين. ومن المرجح أن يضطلع "الهوى" بأدوار هامة فى العلاقات الخارجية الصينية "كنموذج دال على التعايش المشترك فيما بين الصينيين على اختلاف مشاربهم".

وفى عام ١٩٩٥، تم انعقاد "المنتدى العالمى للإسلام والكونفوشيوسية:- حوار حضارى"، وذلك فى العاصمة الماليزية "كوالا لمبور" حضره باحثون من بلدان شرق آسيا، ودول الجوار. وقد افتتح المفكر الإسلامى، والسياسى الماليزى البارز أنور إبراهيم، اللقاء وأشار إلى أن :

هناك العديد من الأشباه والنظائر المذهلة فيما بين الإسلام والكونفوشيوسية،

فى المبادئ والخبرة التاريخية، وكذلك فى رفضهما لأن يفصلا الدين، والأخلاقيات، والمبادئ السامية عن محيط العمل العام. إذ لا تختلف رؤية الإسلام واعتراضه على العلمانية، بسعيها لفصل السياسة وغيرها من الاهتمامات الاجتماعية عن الدين والأخلاقيات- عن رؤية الكونفوشيوسية لها ... تلك الرؤية التى عرض لها البروفيسور "تو واى مينغ" فى كتابه الشائق، Way Learning and Politics لذا، فلا توجد أية صعوبات تواجه المسلم فى التواؤم مع الطرح الكونفوشيوسى لاستعادة الثقة فى الحكومات، وللعمل على الانتقال بالمجتمع من الوضع الراهن إلى مناخ أكثر اقترابا من المبادئ السامية والأخلاقيات.

الأوغـور

أما الجانب المقابل فيختلف اختلافا تاما. فبالنسبة للنصف الآخر من السكان المسلمين بالصين غير المنتمين "للهان" إثنيا على الإطلاق، فتنحدر عناصر أولئك المسلمين من أصول تركية (إلى جانب جماعة صغيرة من الطاجيك ذات اللغة الفارسية). ويمثل الأوغور أكبر تلك الجماعات التركية، إذ يبلغ عدد أفرادها حوالى عشرة ملايين نسمة يعيشون فى مقاطعة "زنجيانغ" الصينية. وكما هى الحال بالنسبة للمسلمين الروس الذين تم استيعابهم ضمن الإمبراطورية الروسية، فقد تم استيعاب الأوغور كذلك فى الصين بسبب توسع الإمبراطورية بالأساس. وتحيا تلك الأقليات التركية والطاجكية بعيدا عن وسط الصين، إذ تقطن الأقاليم الغربية المتاخمة لباكستان وكازاخستان، ومن المنظور التاريخى، فقد تم ضم تلك الأقليات للدولة الصينية منذ زمن غير بعيد. ويمثل الأوغور جزءا أساسيا من الحضارة الممتدة لأتراك آسيا الوسطى، ويرتبطون ارتباطا وثيقا بالشعوب التركية الأخرى فى آسيا الوسطى، وبصفة خاصة الشعوب الأوزبكية، والتى ينحو الأوغور إلى الترابط معهم على امتداد معظم سنى التاريخ. لذا، تختلف تلك الأقليات كثيرا عن "الهان" على الصعيد الإثنى، والثقافى، والدينى بما ينشئ هويات متمايزة، ويعزز من المقاومة ضد دولة "الهان" الساعية نحو تطويقها.

وقد عمل الحكم الشيوعى فى الصين على تهميش الكثير من الأقليات هناك، خاصة خلال "الثورة الثقافية"، إذ تم تخريب ثقافاتها وتجريفها. وعلى امتداد سنوات عديدة، أبدى الأوغور مقاومة مسلحة وقتية ضد سياسات الدولة الصينية التى عطلت ثقافتهم ومساعيهم نحو حكم ذاتى. إن المقاومة، سواء كانت مسلحة أو سلمية، كانت حدثا ذا شأن، تم قمعها بواسطة الشرطة، على أنها لم تختف أو تزول ... إذ واصل الأوغور احتجاجاتهم كردة فعل قوية ضد جهود بكين لاستيعابهم داخل المجتمع الصينى، وطمس هوياتهم.

ومن أجل إحكام السيطرة على تلك الأقلية صعبة المراس، فقد عمدت الصين إلى تحفيز أعداد هائلة من "الهان" للهجرة صوب مقاطعة "زنجيانج"، وتعد تلك الهجرات جانبا من رغبة جامحة للسيطرة على الأوغور، والذين سيتم غمرهم، فى النهاية، بموجات متصاعدة من الهجرات من جانب "الهان" باتجاه موطنهم الأم. وبمرور الزمن، لن يستطيع الأوغور، والبالغ عددهم نحو عشرة ملايين، الصمود طويلا لحماية هويتهم، وثقافتهم أمام أكثر من ١,٢ مليار من "الهان" بالصين. وفى لحظة زمنية ما، قد تمسى ثقافة الأوغور مجرد عنصر جذب سياحى طريف، أو قطعة متحفية من ماض قد ولى. أما الصين، فقد بادرت بانتهاز الدعوة "للحرب العالمية ضد الإرهاب" للتصريح بأن الانفصاليين الأوغور فصيل من الشبكة الإرهابية ذاتها التى تقوم واشنطن بمقاومتها.

لذا، فمن الجلى، كما فى أى موضع آخر بالعالم، أن مشكلة بكين لا ترتبط، حقيقة، بالإسلام مطلقا، وإنما تتعلق بالأقليات الإثنية، خاصة حين تكون تلك الهويات الإثنية قائمة بالتوازى مع اعتناق دين بذاته. وعلى سبيل المثال، يصدق هذا على الأوغور المسلمين، وأهالى التيبت من البوذيين والمغول، إذ يزيد ذلك التمايز المضاعف من إصرار تلك الأقليات على حماية وجودها الثقافى فى تطلعها لنوع من الاستقلالية والحكم الذاتى.

وتؤمن الصين جيدا بأن نفوذها المستقبلى فى آسيا يعتمد على الحفاظ على روابط وثيقة مع الشعوب المسلمة بها، بما فى ذلك قطاع الطاقة بالغ الأهمية، والذى يقع بالأساس فى مناطق يقطنها مسلمون من "زنجيانج" وحتى بحر قزوين. لذا، لا تنطبق هنا مقولة "الحدود الدموية للإسلام" من وجهة نظر القادة فى بكين، حتى فى سعيهم لإخماد شرارة الانفصال والمقاومة من قبل الأوغور، وأهالى التيبت البوذيين. ومن المرجح أن تسعى طائفة قليلة من "الجهاديين" إلى مواصلة الصراع فى "زنجيانج"، بيد أن تأثيرها سيكون ضعيفا ومحدودا، إذ تقوم الصين على نحو وثيد، باستئصال عناصر الأوغور.

إن معظم العالم الإسلامى يرى فى الصين قوة هامة ضد استئثار أمريكا بالهيمنة، وثقلا مضادا فى ميزان القوى الذى صارت الولايات المتحدة، بموجبه، قوة ترجح كفتها بلا منازع. إلا أن البلدان والأقاليم المجاورة للصين، كما الحال فى آسيا الوسطى، فتمثل الصين، فى نظرها، صورة مبهمة وغامضة للمسلمين هناك، والذين يدركون الطابع التوسعى الذى طالما اتسمت به الصين فى الماضى، وقدرتها على الاستيعاب، بل الابتلاع النهائى لأية ثقافات مغايرة فقط من خلال ثقلها الديمجرافى الهائل. ومع ذلك، تمثل الصين وروسيا قوتين متقابلتين لإحداهما الأخرى بما يتيح حيزا أرحب نسبيا للمسلمين للتعبير عن أنفسهم وثقافاتهم.

إذاً، فمن الجلى هنا أن المشكلة فى الصين تكمن فى تعدد الإثنيات بها، وليس فى الإسلام بحد ذاته. ولم تكن المشكلات بشأن تلك الجماعات الإثنية لتختلف كثيرا حتى ولو لم يكن ثمة إسلام. "فالهان" متكاملون فيما بينهم، ويمثلون حلقة وصل هامة بين الثقافتين الإسلامية والصينية. أما المسلمون المتمايزون إثنيا، على نحو كبير، فيخوضون حربا انفصالية ذات طابع إثنى، حتى ولو زاد من حدتها اختلافهم العقائدى مع الأغلبية الصينية غير المسلمة.